العرب
الإثنين 2019/07/29
السنة 42 العدد 11422

تونس... في غياب الباجي

خيرالله خيرالله
إعلام لبناني

سيكون انتخاب شخصية محترمة، قادرة على الدفاع عن مسار الحداثة في تونس رئيسا للجمهورية، بمثابة مؤشر إلى أن البلد قادر على الدفاع عن نفسه وحماية مكتسبات مرحلة الحبيب بورقيبة. أسست تلك المرحلة لقيام مؤسسات لدولة مدنية تسيّرها قوانين عصرية تحافظ على حقوق المرأة وتؤمّن المساواة بينها وبين الرجل في كلّ الحقول. هذا لا يعني أن عهد بورقيبة كان خاليا من الشوائب، خصوصا في السنوات العشر الأخيرة التي تقدّم فيها "المجاهد الأكبر" في السنّ ولم يتخذ أي خطوة من أجل تحقيق انتقال سلمي للسلطة عن طريق الصندوق الانتخابي.

على الرغم من كلّ هذه الشوائب، بقي بورقيبة زعيما عربيا استثنائيا بكلّ المقاييس. لا تزال أصداء خطابه في أريحا تتردّد إلى اليوم. كشف ذلك الخطاب الذي سبق هزيمة 1967 كم كان بورقيبة سياسيا عميقا وواعيا وواقعيا وكم كان جمال عبدالناصر الذي أصرّ على صدّه مجرّد ظاهرة صوتية جلبت الكوارث على مصر وعلى المنطقة كلّها.

التاريخ أنصف الحبيب بورقيبة وسينصف الباجي قائد السبسي الذي مات ولم تمت معه مؤسسات الدولة التونسية. تلك المؤسسات التي استطاعت مقاومة قوى التخلّف، على رأسها تنظيم الإخوان المسلمين فترة طويلة

أنصف التاريخ الحبيب بورقيبة وسينصف الباجي قائد السبسي الذي مات ولم تمت معه مؤسسات الدولة التونسية. تلك المؤسسات التي استطاعت مقاومة قوى التخلّف، على رأسها تنظيم الإخوان المسلمين فترة طويلة. بدأت هذه الفترة بالاستقلال في العام 1956 واستمرّت في عهد زين العابدين بن علي الذي أخذ بالقوّة مكان بورقيبة في تشرين الثاني – نوفمبر 1987... وبعد "ثورة الياسمين" أواخر العام 2010 وبداية 2011 عندما أجبر الشعب التونسي بن علي على الاستقالة واللجوء إلى المملكة العربية السعودية.

وقف الباجي قائد السبسي سدّا منيعا في وجه سقوط مؤسسات الدولة التونسية. دافع بالفعل عن إرث الحبيب بورقيبة الذي سعى بن علي إلى التنكر له عن طريق إلغاء الحياة السياسية في بلد قبل فيه سلفه أن تكون شخصيات أخرى في مواقع قيادية. فعلى سبيل المثال وليس الحصر، كان رئيس الوزراء في عهد بورقيبة يتمتع بوضع خاص وليس مجرد موظف، كما شاء بن علي.

أيّا تكن الاعتراضات على الباجي قائد السبسي، خصوصا بسبب تمسّكه بالرئاسة، على الرغم من تقدّمه في السنّ، يكفي أنّ الرجل استطاع الصمود ومنع تونس من السقوط. أكثر من ذلك، أصر على تمرير قوانين عصرية لمصلحة المرأة والعائلة تؤكّد أن تونس مستمرة في لعب دور طليعي في مجال تكريس وجود دولة مدنية والمساواة بين المواطنين.

هل تبقى تونس صامدة في غياب الباجي قائد السبسي؟ السؤال في غاية الصعوبة والتعقيد. الكثير سيعتمد في نهاية المطاف على الشخصية التي سينتخبها التونسيون في الخامس عشر من أيلول – سبتمبر المقبل لتخلف الباجي قائد السبسي. المهمّ أن تكون هذه الشخصية قويّة وأن تتمتع في الوقت ذاته بفكر مستنير بعيدا عن فكر "حركة النهضة" التي تعمل بهدوء على التسلل إلى مواقع أساسية في الدولة وتحقيق اختراقات لمؤسساتها.

لا تنقص تونس الشخصيات القادرة على لعب دور قيادي بالفعل، دور قيادي بنّاء بكلّ معنى الكلمة. وهذا يعني في طبيعة الحال إكمال الدور الذي لعبه الباجي قائد السبسي في مجال المحافظة على إرث الحبيب بورقيبة وتطويره. لكنّه يظلّ أهم ما يستطيع الرئيس الجديد عمله هو التأسيس لمرحلة جديدة يكون فيها تداول سلمي حقيقي للسلطة بين شخصيات تؤمن بالانفتاح وبجعل تونس على تماس مع كلّ ما هو حضاري في العالم.

الأهمّ من ذلك كلّه، أن أوان مواجهة الواقع التونسي بدل الهروب منه. صحيح أن الباجي قائد السبسي عرف كيف يحافظ على مؤسسات الدولة والحدّ من هجمة "النهضة" عليها، لكنّ الصحيح أيضا أن تونس في معركة مع الإرهاب. لا ينتج المجتمع التونسي رجالا ونساء وقادة نقابات يمتلكون القدرة على الدفاع عن مكتسبات عهد بورقيبة فحسب، بل إنّه ينتج أيضا إرهابيين.

من هذا المنطلق، كلّ ما يحدث في تونس حاليا يثير القلق. حال القلق سائدة قبل وفاة الباجي قائد السبسي الذي تعرّض لوعكة صحيّة أولى في السابع والعشرين من حزيران – يونيو الماضي. في يوم الوعكة الصحية التي تعرّض لها رئيس الجمهورية الذي نقل إلى المستشفى العسكري في ظلّ إشاعات كثيرة... وقعت عمليتان إرهابيتان. كانت إحداهما في شارع الحبيب بورقيبة وسط العاصمة، فيما استهدفت الأخرى قوّة مكافحة الإرهاب. لم تسفر العمليتان عن خسائر كبيرة، لكنّ الملفت كان إعلان "داعش" مسؤوليته عنهما. يشير ذلك إلى أن خطر "داعش" ما زال قائما أوّلا وإلى وجود حاضنة لهذا التنظيم في تونس ثانيا وأخيرا. ما لا يمكن تجاهله في أيّ لحظة هو أن عدد التونسيين الذين التحقوا بـ"داعش" كبير جدا في سوريا والعراق وأماكن أخرى. وهذه ظاهرة لا بدّ من التوقف عندها. ما الذي جعل الآلاف من التونسيين يلتحقون بهذا التنظيم الإرهابي على الرغم من كلّ الجهود التي بذلت في عهدي الحبيب بورقيبة وزين العابدين بن علي من أجل تطوير الوعي في أوساط المجتمع التونسي؟ ما الذي يمكن أن يعمله الرئيس الجديد كي يضع حدّا لهذه الظاهرة؟

لا حاجة إلى الذهاب بعيدا من أجل الحصول على جواب عن مثل هذا النوع من الأسئلة المتعلّقة بوجود "داعش" في تونس. هناك أحزاب دينية معروفة عملت في ثمانينات القرن الماضي على تقويض عهد بورقيبة والقضاء على كل إنجازات هذا العهد. كذلك، فإن بورقيبة نفسه يتحمّل مسؤولية كبيرة في كل ما حصل عندما أصرّ على أن يكون رئيسا لمدى الحياة. انتهى به الأمر في مرحلة معيّنة أن أصبح أسير زوجته وسيلة بن عمار التي طلّقها في العام 1986، ثم قريبته سعيدة ساسي إلى حين حصول حركة التغيير التي قام بها زين العابدين بن علي، مع ضابطين آخرين، في السابع من تشرين الثاني–نوفمبر 1987.

ما حصل قد حصل. لا يمكن البكاء على الفرص التي أضاعتها تونس، بما في ذلك تلك التي أضاعها زين العابدين بن علي الذي وقع باكرا في أسر زوجته الثانية وأفراد عائلتها... والرئاسة لمدى الحياة.

تبدو تونس في حاجة أكثر من أيّ وقت إلى رئيس يتمتع بمواصفات معيّنة في مقدّمها معالجة ظاهرة الإرهاب بكلّ أشكالها وتطوير الإيجابيات التي تحققت بفضل الباجي قائد السبسي. هل من وجود لشخصية تمتلك مواصفات معيّنة تمكنها من لعب هذا الدور؟

على شخصية الرئيس الجديد، سيتوقف الكثير في تونس حيث تراجع الأمن والخدمات والاقتصاد منذ خروج بن علي من الرئاسة. هذا واقع يجمع عليه كلّ زوّار تونس. هذا الواقع يستدعي الاستعانة بشخص استثنائي يمتلك العقل المستنير لبورقيبة ولا عقد لديه حيال أي إيجابيات في عهد زين العابدين بن علي، خصوصا في مجال مكافحة الإرهاب والذهاب إلى جذوره والتنمية الاقتصادية...

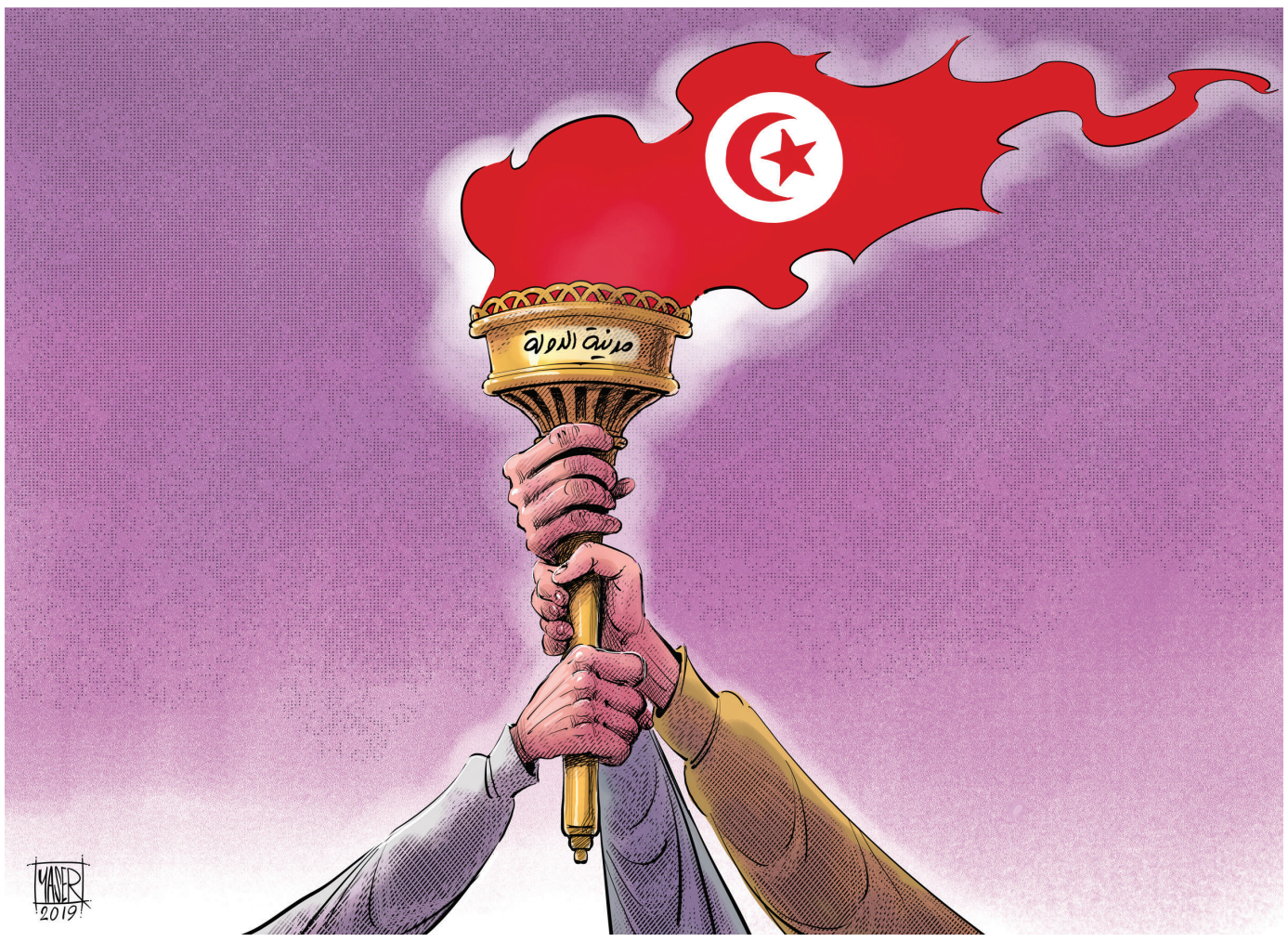

بعد السبسي تبقى تونس المدنية

فاروق يوسف
كاتب عراقي

لن يكون غياب الباجي قائد السبسي عن المشهد السياسي التونسي مناسبة لتصدر راشد الغنوشي ذلك المشهد. فالسبسي وهو الذي درس القانون كان رجل سياسة حقيقيا أما الغنوشي فإنه يلعب بمشاعر الناس الدينية من أجل أن يوظفها في خدمة طموحاته السياسية.

السبسي هو رجل دولة مدني أما الغنوشي فهو داعية دين لا شأن له بالدولة ولا يعترف بها استنادا إلى منطلقاته النظرية. وإذا أردنا العودة إلى تاريخ الرجلين فقد كان السبسي موظفا في الدولة أما الغنوشي فقد كان يسعى إلى هدم تلك الدولة معارضا.

سيكون من الصعب الاستمرار في المقارنة بين الرجلين على مستويات عديدة. منها طريقة النظر إلى المجتمع وكيفية معالجة مشكلاته كما أن المرأة بحقوقها المدنية الناجزة في تونس تقف سدا بينهما.

خلاصة القول إن السبسي هو رجل حياة أما الغنوشي فهو أشبه بحفار قبور.

كان غياب السبسي متوقعا. فالرجل عاش طويلا متمتعا بصحة جيدة. لذلك فإن تونس لن تفتقده بألم الحرمان. هناك نساء ورجال في تونس يمكنهم أن يحلوا محله وبكفاءة قد تفوق كفاءته. بشرط أن يتم الانتقال إلى النظام الرئاسي. وهو ما يتطلب إجراء تغيير عاجل في الدستور.

كان النظام البرلماني بمثابة مكيدة وقعت فيها تونس لتفترسها الأحزاب. يمكن للبرلمان أن يلعب دورا مهما في إقرار القوانين ومراقبة الدولة دستوريا لكن تونس في وضعها الانتقالي في حاجة إلى رجل قرار، يكون بحجم ما يحلم به شعبها.

الانتقال إلى النظام الرئاسي وحده هو ما سيحرم الغنوشي من التفكير في أن يرث السبسي في مكانته السياسية. سيكون من الصعب على مَن لا يعترف بالدولة أن يكون رجل دولة.

فكرة أن يكون الغنوشي حيا والسبسي ميتا لن يكون لها تأثير أبدا. ذلك لأن السبسي في موته قد يكون أكثر حياة من الغنوشي في حياته. فما يحتاجه التونسيون رجل حياة يقود مسيرتهم.

لم يثر التونسيون من أجل أن يتسيّدهم فقيه بلباس مدني.

الحسابات التي يعمل على أساسها الغنوشي ليست صحيحة في ظل وعي الشارع التونسي بخطورة السير وراء الأحزاب الدينية التي تحوم حولها شبهات التشدد أو الإرهاب، لا في تونس وحدها بل وأيضا في العالم العربي.

ثم إن السنوات القليلة السابقة، بالرغم مما تخللتها من أزمات اقتصادية خانقة أضرت بشرائح اجتماعية كثيرة فإنها قدمت نموذجا لحيوية سياسية تقوم على أساس الحوار السلمي بين فعاليات المجتمع المختلفة. وما كان ذلك ليحدث إلا بفضل وجود آلية عمل مدنية في الحكم.

فالرئيس الراحل وإن بدا مترددا في بعض الحالات فإن حرصه على أن يكون رئيسا لكل التونسيين كان واضحا. أما الغنوشي فهو رجل عقائدي متشدد في حزبيته ولا يمكنه الخروج من دائرتها.

في ذلك تقوى تونس على أن تكون فاصلة بين الرجلين. فرجل تونس الذي كانه السبسي هو غير رجل الحزب الذي يمثله الغنوشي.

لا بأس أن تكون لزعيم حركة النهضة طموحاته السياسية غير أن تلك الطموحات لا ترتكز على أسس واقعية، إلا في حدود المحيط الاجتماعي والثقافي الذي صنعته الحركة بعد الثورة مستغلة الفقر والحرمان الجهوي وخوف الناس من الدين.

وإذا ما كان علينا أن لا نستهين بذلك المحيط غير أن قدرته على إحداث تغيير في المزاج المدني التونسي تبدو محدودة. فـ"تونس" هي واحدة من أعرق الدول العربية من جهة نظامها المدني ناهيك عن أن قطاع التعليم فيها ظل مصانا ومتقدما وهو ما أضفى على القوانين التي وضعها الرئيس الحبيب بورقيبة مزيدا من الصلابة والتماسك والإقناع.

ما يفكر فيه التونسيون في ما يتعلق بمستقبلهم يتناقض كليا مع طموحات رئيس حزب ديني يريد أن يعيد تونس إلى الوراء ألف سنة.

تعلمنا منك الكثير يا سيادة الرئيس

علي قاسم
كاتب سوري

إثر الإعلان عن وفاة الرئيس التونسي الباجي قائد السبسي، قلت في تأبين كتبته إنّ التونسيين سيعيدون اكتشاف الباجي.. وهذا ما فعله التونسيون.

في جنازة تاريخية، ودّع فيها التونسيون رئيسهم، قالوا بصوت واحد: "سنحبك أكثر". والإعلام، الذي دأب على انتقاد الرئيس، خرج بعناوين رئيسة، كان أكثرها دلالة ما خطته "الصحافة"، على صفحتها الأولى، "رحيل رئيس.. ميلاد زعيم".

بحضور ملوك ورؤساء، حوّل التونسيون مراسم التأبين إلى استفتاء عظيم، لم يشهد له التاريخ مثيلا، استفتوا فيه على نصيب المرأة في الميراث، واحترام الدستور، والحرص على قيم العلمانية، والأخلاق الروحانية.. وأهم من ذلك كله، استفتوا على حق الناس بالاختلاف، وصوتوا على الخيار الديمقراطي، دون رجعة.

قبل 16 عاما جئت تونس في أول زيارة لي لمدة أسبوع، وها أنا أمضي فيها عامي السادس عشر، لم آت إليها لاجئا، ولا فارا. وكثيرا ما يوجّه لي سؤال، ماذا يجبرك على العيش فيها، وأنت تحمل جواز سفر بريطاني.

أحيانا كثيرة أراوغ وأتهرب من الجواب، حتى لا يقال إني أنافق.. إلا أن حب التونسيين لتونس، الحب الذي برز في مراسم توديع الباجي، شجعني على أن أقول السبب.

أحب تونس لأنها بلد ليست كباقي البلدان، وأحب شعبها لأنه ليس كباقي الشعوب.

أحب تونس، التي كانت أول كلمات كتبتها عنها، خلال القمة العالمية حول مجتمع المعلومات عام 2005 هي: "تونس ليست مدينة فاضلة، تونس مدينة من دم ولحم وعرق".

تونس مدينة حقيقية، لا تدعي المثالية، ولهذا السبب أحب تونس.

أحب تونس.. بيمينها، وأحبها بيسارها، أحبها بشيوخها، وأوليائها، وبخورها. أحبها بمثقفيها العلمانيين، الذين يختلفون في ما بينهم، فتعلوا أصواتهم، وهم يتجرعون أقداح البيرة، مشروبهم المفضل.

أحب تونس بنسائها المتشحات بالسفساري، وبغزلانها يتهادين على شواطئ حلق الوادي والمرسى، اللواتي كتب عنهن العملاق، بيرم التونسي، أغنية بساط الريح، رائعة فريد الأطرش.

أحب تونس، التي قدمت لنا، لطفي بوشناق، الشرقي الهوى، وفي الوقت نفسه قدمت لنا، سمير لوصيف، صاحب الصوت الأسطوري الذي أطربنا على أنغام المزود.

أحب تونس، التي طيلة حكم الباجي قائد السبسي، قوّمته بلسانها، وكانت قاسية عليه، وأعادت اكتشافه بعد الرحيل.

علاقة الحب بين التونسيين وتونس، علاقة حب من نوع آخر. عندما "يحرق" شباب تونس مغامرا بحياته، ليصل إلى الضفة الشمالية للمتوسط، لا يفعل ذلك كرها بتونس، بل حبا فيها.. يغادرها وهو يحلم بيوم يعود فيه إليها، حاملا ما يكفيه لبدء مشروع صغير، يعينه على العيش فيها.

وفي غيبته يدمدم مع سمير لوصيف، دون خجل، وهو الذي لم يهب الموت يوم ترك البلاد مهاجرا:

يا ميمتي الغالية.. يا عين من عينيا
مشتاقلك مشتاق.. مشتاقلك مشتاق
بعدك يا عزيزة عليا.. ليام لعبت بيا
وكواني الفراق.. وكواني الفراق
طال غيابي طال.. تعبني الترحال
وحراقه الأشواق.. حراقه الأشواق

التونسيون شعب يحب بلاده، "كما لا يحب البلاد أحد"، حتى وإن بدا قاسيا عليها.

قوي كصخرة، رقيق كجناح فراشة، هذا هو التونسي الذي علّم العالم الكثير. والباجي قائد السبسي لم يكن سوى تونسي، علمنا الكثير.. وكان من أجمل ما قيل عنه، هو قولة الرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون، في تأبينه "تعلمت منك الكثير يا سيادة الرئيس".

مراسم دفن الباجي قائد السبسي، سيتعلم منها العالم الكثير، وستتعلم منها الشعوب العربية، خاصة تلك التي عصفت بها رياح الربيع العربي، الأكثر، ستتعلم منها قيمة الحفاظ على دولة المؤسسات، وقيمة القانون المحمي بالدستور، وفوق كل ذلك تتعلم كيف تعيش مع الآخر المختلف.. تتعلم الديمقراطية.